اصل الانسان

اصبحت مسألة اصل الانسان في هذه السنين الاخيرة الشغل الشاغل لاكثر العلماء الطبيعيين بعد ان حلّت تلك القيود والاغلال الدينية التي كانت تمنع العالم الباحث عن التصريح بارائهِ وبما يتوصل اليهِ من البحث والاستقراء. لاسيما بعد ان قام داروين وتبعهُ في ذلك هيكل وبحثا في اصل الانسان بحثاً وافياً تفوّقا بهِ على من تقدمهما من العلماء الطبيعيين القائلين بهذا المبدإ. وقد توصلا اخيراً بالحجج العقلية الى النتيجة التالية وهي ان الانسان الاول مرتقٍ عن الحيوان فكان ذلك داعياً الى تنبه افكار العلماء الى هذه المسألة وصرف مجهودهم في سبيلها. فاخذ انصار هذا المبدإ والقائلون بهِ يكثرون من يومٍ الى اخر وكان البحث والاكتشاف يزيدهم تثبتاً بهِ واقتناعاً بصحتهِ

اما الاسباب التي دعت العلماء الطبيعيين الى ترجيح هذا الراي والاهتمام بهِ فهي تعدد الاكتشافات في النصف الاخير من القرن الماضي كالمياكل البشرية المتحجرة والادوات التي وجدت في طبقات الارض وما كان من تقدم علم تشريح المقابلة وعلم الاجنة وهما العلمان اللذان يساعدان على تشخيص الانسان الاول وتبيان الشكل الذي كان متصفاً بهِ

ولقد ترددت في اثناء اقامتي في باريس على متحف التاريخ الطبيعي وتشريح المقابلة وهو اغنى متحف من نوعهِ في العالم يحتوي على بقايا الحيوانات المتحجرة على انواعها وهي مرتبة حسب وجودها على الارض ترتيباً بديعاً من الادنى الى الحيوانات التي نشأت مع الانسان. وهناك ردهة للانثروبولوجيا وهي مجموعة هياكل بشرية من اكثر اطراف المعمور مرتبة بحسب الانواع البشرية يستخلص منها تاريخ دماغ الانسان وارتقائهِ

ولقد تعرفت بعالم كبير لهُ شهرة واسعة بين العلماء الطبيعيين وهو الدكتور ثرنو استاذ الانثروبولوجيا في هذا المتحف وامين متحف الاثنوغرافيا وتحت نظارتهِ معمل يجانب المتحف يصلحون فيهِ المياكل العظمية والجماجم التي ترد اليهم من الخارج ويطلونها بمادة لمنع الفساد قبل عرضها. واتفق انهُ التقى في تلك الاثناء محاضرة في اصل الانسان صدّر بها الجورنال الباريسي عددهُ الصادر في ٢٢ اغسطس الماضي فاستأذنتهُ في نقلها الى قرّاء العربية وهذه ترجمتها

ان اكتشاف بعض المياكل البشرية المتحجرة في هذا الزمن الاخير قد اعاد على بساط البحث مسألة اصل الانسان وهي التي كانت دائماً الشغل الشاغل للامم العتيقة والمتمدنة معاً.

حتى كان كل فريق منهم ينسب خلق اجداده الاولين الى ذوات فائقة الطبيعة . فيزعم سكان استراليا القيمون في جهات ملبورن انهُ في احد الايام اوحى الى الاله بندجل بانت يصنع من الصلصال تمثالين على صورة الانسان . ثم عمل من لحاء الشجر شعراً سبطاً لاحدهما وشعراً جعداً للآخر واخذ يرقص حولها ثم اضجع فوقهما ونفخ في انفيهما وفميهما وسرتيهما ثم عاد الى الرقص فانتصب التمثالان تامي الخلق . وهذه القصة تشبه قصة بتولومه اليونانية

ويعتقد قوم الاوفاس هريروس (Ovas Herreros) في افريقيا الجنوبية ان اول رجل وامرأة ولدتهما شجرة . ويقول بعض الزولس (Zoulous) ان جدهم الاكبر قذفتهُ بقرة . ويزعم الاقوام الخاسيو اللون ان جدهم الاكبر إما الارنب الكبير المقترن بابنة فارة الملك او الذئب او الكلب او النسر او الغراب حتى والحية ايضاً . ويزعمون ان هذه الحيوانات ليست الاَّ آلهة مبدعة

ومما يلاحظ في بعض الاساطير ان الآلهة كانت تأتي اعمالها بدون تبصر وروية فقد جاء في اساطير اوستراليا ان مورا مورا (اي الروح الصالح) خلق في اول الامر عظام سود الالوان صغار الاجسام لكنهُ لم يجعل لها اصابع ولا اباهم . ولكي يصلح العمل الذي اغفلهُ شق لها ايدي وارجلاً ثم وهبها انفاً وشفتين وامرها ان تقف مستقيمةً . ولما كانت اذنابها مرسلةً دائماً الى الامام قطعها منها ومن ذلك الحين طفقت تسير مستقيمةً وصارت بشراً

ولما اتفقت اساطير الاقدمين على قدم وجود الانسان على الارض فان المسيحيين انفسهم قد اختلفوا في هذه المسألة فيرى بعضهم ان وجود آدم على الارض كان قبل التاريخ المسيحي بثلاثة آلاف وسبعمائة سنة ويقول البعض الآخر ان بدء الخليقة كان قبل المسيح بسبعة آلاف سنة والمحقق عند علماء الطبيعة ان الانسان وجد في زمن بعيد جداً قبل اقدم زمن يذكرهُ التاريخ . فالانسان قد ثبت وجودهُ في طبقات الارض التي تكونت قبل العصر الجيولوجي الحالي باكتشاف الاسلحة والادوات الحجرية والعظمية والعاجية والقرنية ووجدت معها بقايا الحيوانات التي كانت عائشة في ذلك العصر ونظراً لترقي علم الاحافير (Paleontologie) يمكن تعيين الزمن الذي عاشت فيهِ . فقد وجد في اوربا مثلاً بقايا مصنوعات اسلافنا الاقدمين بجانب متحجرات الرنة (Renne) والشره (Glouton) والظبي المسمى (Antilope saiga) والماموث (Mammouth) والكركدن (Rhinocéros) ذي المخرين المنفصلين الخ

والطبقات التي هي اقدم من ذلك تحتوي على ادوات حجرية غليظة بجانبها متحجرات من

بقايا الفيل والكركدن وفرس النهر وانواع غيرها من الحيوانات التي لا اشباه لها الآن في الجهات الحارة من الكرة الارضية . وعلى ذلك يكون الانسان من يوم ظهوره على وجه الغبراء حتى يومنا الحاضر قد شاهد تغيرات عامة ومتعددة طرأت على الاقاليم وعلى عالمي الحيوان والنبات

ولم يتوصّل العلم حتى الآن الى تقدير الزمن الذي مرّ على ظهور الانسان على الارض وان جميع الرسائل والافتراضات التي جاء بها العلماء لتقدير هذا الزمن كانت مدعاة للشك والانتقاد . فالاستاذ مرتيه (Mortillot) يقدّر تاريخ ظهور الانسان على الارض بمئتين واربعين الف سنة ولو فرضنا ان هذا التقدير مبالغ فيهِ وقلنا ان ظهور الانسان على الارض كان منذ مئتين الف سنة يكون ذلك دون الحقيقة

واما في الصناعة فالانسان الاول لم يكن ارقى كثيراً من بعض القرود الشبيهة بالانسان فكانت آلاتهُ وادواتهُ الاولى من الاغصان ومن حجارة غير مصقولة . فان اقدم الادوات المصقولة التي نعرفها كانت من شظايا الصخور (الظران) او من قطع حجارة مرققة قليلاً . ثم اخذت اسلافنا تتقن صناعتها وتهذبها شيئاً فشيئاً فلما ظهر الايل المعروف بالرنة (renne) في فرنسا مثلاً كان سكانها قد توصلوا الى معرفة النقش والحفر فرسموا اشكال الحيوانات التي كانت عائشةً في زمانهم

ولكن هل ارتقى الانسان طبيعياً كما ارتقى عقلياً؟ فيجيب عن ذلك بان جميع الابحاث التي عملها علماء الحياة قد اظهرت ان الكائنات الآلية كلها من نبات وحيوان تتكيف وتتحول حتى تتغيرت الاحوال المحيطة بها . واجمعوا كلهم على ان الانسان خاضع لهذا النظام كغيرهِ من الكائنات الحية . ولما كانت الاشياء المكتشفة معهُ قد تكيفت وتغيرت من حين ظهورهِ حتى الآن لا يمكن ان يبقى شكلهُ ثابتاً غير قابل التغير . وهو ما دعى داروين وتلميذهُ هيكل الى ان يبحثا باستفاضة على مبادئ عملية عن صفات اسلافنا الاولين . فتوصّلا بالاستقراء الى ان الانسان الاول كان احط منّا هو الآن . واثبت هيكل اننا متناسلون من مخلوق حاز لصفات قردية وبشرية معاً ودعاهُ الانسان القردي . ولقد كانت هذه المبادئ مدعاةً لسخرية اناس كثيرين بقولهم انا ارتقى الانسان القردي او برهن لنا على الاقل ان اسلافنا الاولين يختلفون حقيقة عنا

وقد اكتشف في الخمسين سنة الاخيرة عدد وافٍ من هياكل البشر المتحجرة واليكم ما افادونا درسها

ان النوع البشري القديم الذي وجد في كرومانيون (Cro-Magnon) وهو الذي ترك

لنا المصنوعات الفنية التي اشرت اليها كان كبير الجثة قوي البنية وراسه وبعض اعضائه صفات خاصة . وان نوعاً آخر اقدم مما تقدم وهو الذي وجدهُ برنس موناكو في كهوف بوسه روسه (Boesse Rousse) المشهورة بالقرب من مانتون (Menton) هياكلهُ قريبة جداً من هياكل الزنوج

وقد نبشوا من اراضٍ عريقة في القدم هياكل بشرية ذات شكل متناهٍ في البهيمية واول هيكل اكتشفوهُ من هذا النوع في نياندرتال (Neanderthal) استغربوا شكلهُ جداً حتى ان بعض العلماء ظنوهُ هيكل انسان مريض او معتوه لكن الهياكل الاخرى التي كانت في ذلك العصر وقد وجدت بثاياها في بلجكا وفرنسا وسويسرا والمانيا كانت مثلهُ تماماً ولها نفس الصفات

ولقد كان مدار البحث في هذه الايام على الهيكل الذي وجد في شابل اوسان (Chapelles-aux-Saints) في كوريز (Corrèze) ويمكن ان نخبهُ مثالاً لما كان عليهِ اسلافنا الاقدمون فقد كان صاحب هذا الهيكل صغير الجسم قوي البنية لهُ جمجمة مفلطحة مضغوطة الى الوراء وفوق حاجبيهِ نتوء غليظ يمتد من الصدغ الواحد الى الآخر ووجناتهُ كبيرتان وذكاهُ بارزان وذقنهُ صغيرة جداً تكاد تكون مفقودة ووجههُ عريض . وقد عثر ايضاً على هياكل في سبي (Spy) بحث فيها الاستاذان فربون ولاهست بحثاً مدققاً فاثبتا ان ارجل اسلافنا كانت مقوسة

فهل بعد هذا كلهِ نقول ان آراء هيكل اضغاث احلام ام نقول انهُ كان في ما مضى من الدهر حيوان بين الانسان والقرد وهو جد البشر لاسيما بعد ان اكتشف الدكتور اوجين دوبوى تلك العظام في جزيرة جاوى وهي لخف جمجمة وسنان وعظم فخذ ظهر انها عظام حيوان بين القرد والانسان حسب السلسلة التي وصفها هيكل

يظهر مما تقدم ان البشر فيما مضى كانوا قريبين جداً من القرود وان الانسان الذي وجد في نياندرتال وهو اقدم الانواع البشرية التي وجدت حتى الآن شبيه جداً بالشمبانزيه والغورلا والاورانغ والجيبون لكن هذا النوع من البشر قد تقدمتهُ انواع اخرى اقدم منهُ وقد ثبت وجودها مما تركتهُ من الآثار كالادوات الصوانية التي اكتشفت في سان اشيل (Saint - Acheul) وشل (Chelles) ومتى عثر على هياكل هذه الانواع تستحكم القرابة بين الانسان والحيوان اما العلم في وقتنا الحاضر فلا يرتاب فيها الياس النقاش